الفصل: " السادس"

" الأفكار الفلسفية"

فى "حضارة مصر القديمة"

ويشمل:

(أ) تمهيد.

(ب) العلوم [الهندسة - الحساب - الفلك - الطب]

(جـ) الفن.

(د) الدين والفلسفة.

(هـ) تعقيب.

(أ) تمهيد:

زودتنا البرديات والآثار المكتشفة فى مراكز الحضارة المصرية القديمة، بمعلومات جيدة عن مستوى تفكير الإنسان فى تلك العصور ونزعاته الفلسفية، حول الكون والطبيعة والحياة.

فقد اجتهد المصرى القديم فى تكوين صورة واضحة عن الكون والطبيعة والحياة، ليتجاوز مصاعب العيش، التى سهَّل بعضها وجود النيل فى وسط الصحراء، باعتباره شريان للحياة فى هذه الربوع.

لقد كان المفكر المصرى ليستحث الخطى باتجاه (الوحدة) السياسية والكونية والاجتماعية، وعبرت عنها آراؤه فى الحياة والموت والخلود والروح، بطريقة ظنها البعض متناقضة، ومفتقرة للنظام والتنسيق، عزاها (فرانكفورت) إلى قبول المصريين بالجديد المستحدث، بجانب القديم البالى، بطريقة لم تسمح بالجديد أنْ يكون معبراً عن الحالة التى تتجاوز القديم، فجاءت أفكارهم وكأنها-حسب هذا الزعم- خليط غير متجانس[1]

وأبناء مصر القديمة، شأنهم شأن من جابه معضلات الحياة، بثقة عالية بالنفس، فأطلقوا طاقتهم العقلية والمادية من أجل بناء صرح حضارة مزدهرة لذلك اهتموا، أول ما اهتموا بالواقع الحيوى، ومنحو للجغرافيا قدراً من الاهتمام فى عقائدهم، فتحدثوا عن أثر (الشمس) على الحياة، فالناس يحيون، لأنَّ الشمس تشرق عليهم، مع أنهم (فى بداية الأمر) لم يتركوا لقوة (الهواء) -الريح- فى عقائدهم، إلاّ موقعاً ثانوياً، لكنهم، فى المقابل، منحوا (النيل- الماء) موقعاً هاماً فى نظام الأشياء، فكانت له دورة (ميلاد) وموت (سنوية)، وذلك لصلة الحياة بالماء، يفسر ذلك عثور الأثريين على تميمة ذهبية نادرة، محتواها "طائر الفينوكس الاسطورى" وهو يمثل بداية خلق العالم من الماء الأزلى فى بحيرة عين الشمس والتى انبثقت منها الحياة المنتظمة، ويقابل ذلك الانتظام، شئ من الفوضى، فى حركة الأشياء لا لسبب ازدواجية الموقف الفكرى، بل من أجل أنْ يقول لنا المصرى

---

[1] راجع فى هذا : ويلز، ج.هـ: موجز تاريخ العالم ترجمة عبد العزيز جاويد، القاهرة ١٩٦٧ م ص٢٥-٣٥ و٥٨-٥٩ و٦٦ و ١٢٨.

المفكر القديم، أنه قادرٌ على التوفيق بين (الأضداد) فى صورتها القريبة، أو فى الوحدة الكامنة وراءها.

ونتناول الأن بعضاً من هذه الإبداعات المصرية القديمة.

(ب) العلوم

فى الحقيقة أننا نجد أنفسنا إزاء منجزات عبقرية، رائعة ودقيقة، حققها العقل المصرى، أجبرت اليونانيين على الاعتراف بأسبقية العلوم المصرية عليهم، ولاسيما الرياضية منها، على الرغم من أنهم قومٌ قليلو الاعتراف بمصدر معارفهم، ومع ذلك أشار هيرودوت وأفلاطون إلى هذة الحقيقة[1]

فكان أبناء وادى النيل بحق عمالقة فى الهندسة، ومازالت الأهرامات، والمعابد، والقصور والمقابر، شواهد شاخصة على هذه العبقرية، إلى يومنا هذا، وفى معرض كشف العلماء عن حجم العلوم المصرية، يقول العالم (هانزفوديك):

" إن الهرم من أكثر الصروح كمالاً، حينما يقف المرءُ أمامه، ويرنو ببصره نحو القمه (الذروة) فيبدو أمامه ثمة طريقٍ يؤدى به إلى (اللامحدود) ليكوّن خط ولوج عالم الإنسان البعيد"[2]

وقد كانت مقايس المسطحات والمكعبات دقيقة إلى أقصى حد عند قدماء المصريين؛ وكانت الأعداد ذات شكل عشرى، بعكس البابليين فقد كانت أعدادهم على شكل ستينى، وكانت عملية الضرب تتحول إلى مضاعفات متوالية، أما عملية القسمة فكانت بمضاعفة المقسوم عليه حتى يصلوا إلى المقسوم؛ وكان حساب الكسور يُعد أهم شيء فى علم الحساب، بل كان حل المعادلات التى من الدرجة الأولى من الأمور اليسيرة عندهم[3]

---

[1] راجع: د. سامى جبره: " فى رحاب المعبود توت، رسول العلم والمعرفة، ترجمة عبد العاطى جلال، القاهرة ١٩٧٤ م، ص ١٦٣ وأيضا:

دكتور ياسين خليل: " التراث العلمى العربى" بغداد، ١٩٧٨ م، ص٢٧-٣٠

[2] دكتور عبد الغفار مكاوى: " لم الفلسفة"، الاسكندرية ١٩٨٢ م ،ص١١٨-١١٩.

[3] راجع: أورسيل (بول ماسون): الفلسفة فى الشرق، ترجمة محمد يوسف موسى، دار المعارف بمصر، ١٩٤٧م، ص ٥٥ - ٥٦.

أما عن حجم التقدم العلمى والتقنى، فكتب كل من النمساويين (بيتر كراسا، ورايتهارت هابيك) فى كتاب نشر لهما فى ألمانيا يحمل عنواناً عن " الكهربائية فى مصر القديمة" أكدا فيه معرفة المصريين القدماء، القوانين التى أوصلتهم إلى معرفة الكهرباء، والاستفادة منها فى الإنارة، وذلك فى سياق حديثهم عن البطارية الكهربائية التى وجد أحدُ العلماء جداريتها فى معبد "دندرا" فى وادى الملوك، والتى تحمل تخطيطاً لمصباح (مشكاة كهربائية)، مع كامل النظام الهندسى مع المشكاة، مثل السلك والقوة، وجهاز تنظيم درجة الضوء، يستخدمونها فى قصورهم ومعابدهم وأهراماتهم، والطريف فى الأمر أنَّ مهندساً نمساوياً، نجح فى صناعة إنموذج مشابه لذلك الذى اكتُشف فى المعبد، وبهذا جاء إنجاز هذا المهندس، ترجمة لَلأثر المصرى القديم[1]

وكان علم الفلك موضع ملاحظات منظمة ومتوالية، فقد جعلت السنة ٣٦٥ يوماً وربع يوم ، مقسمة إلى (١٢ شهراً)، وكان الأسبوع سبعة أيام مسماة بأسماء الكواكب السيارة السبعة، واليوم مكّون من اثنتى عشرة ساعة نهارية ومثلها ليلية، كل هذا ينتقل إلينا من مصر عن طريق أجدادنا الأقدمين.

وفكرة البروج؛ وشكل الكون الكروى، وكروية الشمس والقمر؛ لا الأرض التى كانت تُعد حلقة مستوية ممنطقة بالمحيط، وطبيعة النجوم النارية، وشرح الكسوف والخسوف، وافتراض وجود دوائر أوساطها على محيطات دوائر أخرى لتبرير دوران الشمس والقمر وعطارد والزهرة والمريخ والمشترى وزحل على بعضها.

أما الطب، فوصل ذروته فى التشريح والتحنيط، مع ما رافق هذا التقدم من ازدهار فى المنجزات الكيميائية، وعمليات معقدة تنطق بها "مومياءات" متحف القاهرة[2]، التى تبقى شاهدة على تقدم هذه العلوم على مرّ العصور والدهور.

---

(١) راجع: وصف سراج توت عنخ آمون فى " موجز فى وصف الآثار المصرية" لدائرة الآثار المصرية، القاهرة ١٩٦٩م، ص٢٢٩،نقلاً عن: على حسين الجابرى: الحوار الفلسفى بين حضارات الشرق القديمة وحضارة اليونان، بغداد، العراق، ١٩٨٥م ص١١٥.

(٢) "موجز فى وصف الآثار المصرية" ص٧٩-٨٠ و١٥٢،٢٠٢

وحقيقة، فإنّ الطب المصرى القديم، جديرٌ بأنْ يدرس فى اهتمام حتى يومنا، لقد وصل قدماء المصريين إلى تقدم عظيم فى الطب والجراحة، واقتبس الطب الإغريقى من الطب المصرى نصيباً عظيماً حتى يمكن اعتباره امتداداً له.

وتذكر أدراج البردى الأطباء والسحرة وأطباء الأسنان وأطباء العيون وغيرهم من الإخصائيين بما فيهم الأطباء البيطريين، وتضم عُجالات طبية وتذكرات وضعها الأطباء القدامى تصف ما يجب القيام به فى حالات خاصة: الطب العام وأمراض النساء وجراحة العظام وأمراض العيون.

وقد عرف المصريون القدامى القلب و"الأوعية التى تذهب إلى كل عضو"، والعلل التى تُصاب بها أجهزة التنفس كالنزلة الشعبية والتهاب الحنجرة، وتعوزنا القدرة على ترجمة كل الألفاظ التى تصف الأمراض والألفاظ الدالة على كثير من مواد العقاقير، لكنّا نعلم أنهم استخدموا عسل النحل والقشدة واللبن، وضمادات الأعشاب والتحميلة والحقنة وزيت الخروع.

وتشير النصوص إلى علاج الأسنان، وعلمنا من فحص المومياوات أنّهم كانوا يعرفون كيف "تحشى" الأسنان بنوع من الأسمنت المعدنى، وأنّهم استخدموا الذهب لربطها.

ولقد عنوا بعلاج العيون، وجاءنا عدد من الوصفات التى قصد بها علاج الرمد الحبيبى والكتركتا والعشى، الذى استخدموا له مزيجا من كبد الحيوان، ولا تزال تستخدم اليوم خلاصة الكبد فى علاج هذه العلة.

وقد تحقق أن الكثير من مشاهداتهم للعوارض كانت دقيقة، والأدوية التى استخدموها ناجعة المفعول، أما جراحة العظام، كما جاءت فى بردية (أدون سمث)، فإنها تكاد تكون علمية.

وكان للطب المصرى القديم ذيوع فى الشرق الأدنى، ولم ينكر أبقراط وجالن أن بعض ما حصلا عليه من علم بالطب، جاء من المصنفات المصرية التى كانا قد درساها فى معبد امحوتب فى ممفيس.

كل هذه المعارف والعلوم، قد أخذها اليونانيون عن قدماء المصريين، والمراجع التى استقينا منها معلوماتنا عن أثر مصر فى اليونان حديثة العهد نوعا، إذ أنها لم تعاصر إلا الحضارة النيلية المصطبغة إلى حد كبير بالإغريقية.

فلم يكتف فراعنة سايس (صا الحجر فى الغربية)- الأسرة السادسة والعشرون (٦٦٣-٥٢٥ ق.م.) - باستخدام مرتزقة يونان ضد خصومهم الأثيوبيين، مفضلين إياهم على المرتزقة اللوبيين القليلى الإخلاص، بل إنهم منذ عام ٦٦٠ أجازوا للتجار اليونانيين التجوال فى جميع أنحاء الإمبراطورية المصرية، فأقدم المشاهدين والمؤرخين القدماء أمثال "هيكاتيه الميليس" و"هيرودوت"، وكلاهما آسيوى، قد وصلا إلى مصبات النيل بعد مُضى قرن ونصف أو قرنين على تدخل اليونان فى مصر، بل إنّ أكبر المؤرخين الوطنيين، وهو (مانيتون)، الذى وضع مصرياته (إيجيبتياكا) بعد عام ٢٧١ ق.م. بمدة وجيزة، كان يُتقن اليونانية كلغته الأصلية، فمن باب أولى إسترابون وديودون وبلوتارك[1]

ولعلّ أهم ما أخذته العقلية الإغريقية عن مصر هو الهندسة التى تُعد النموذج الأصلى للمعرفة حسب مذهب أفلاطون، وبديهى أنّ (طاليس) هو الذى حمل عصاه وقاس ارتفاع الأهرام، لكن هناك مسائل أخرى اضطر إلى حلّها مشيدوا تلك الصروح، نعم إنّ المصريين لم يضعوا نظريات البناء الهندسى كما فعل إقليدس، لكنهم استخلصوا نتائجها ومبادئها وحلولها، كما تشهد بذلك أعمالهم. ويظهر تأثر أفلاطون بالعلوم الرياضية، وخاصة الهندسة، فى تلك العبارة التى توَّج بها مدخل أكاديميته فقال:

"لايدخل الأكاديمية إلاّ من كان ملماً بالهندسة"، لذلك فقد جعل من دراسة العلوم الرياضية تمهيداً لدراسة الفلسفة فى نظام تربيته للحكام الفلاسفة، أما العلوم الرياضية التى كان أفلاطون يعنيها فى هذا النظام، فهى الحساب والهندسة والفلك والموسيقى، وهو لا يعنى بالحساب فن العد الذى يستخدمه التاجر أو القائد، ولكنه يعنى به دراسة نظرية للأعداد ولخصائصها.

أما الهندسة فهى ليست قياس المساحات، ولكنها دراسة للنسب المعقولة، ولكن المعرفة الرياضية، على الرغم من أهميتها عند أفلاطون تظل فى مرتبة أدنى من معرفة المثل، وذلك لأنّ الرياضة تعتمد على فروض ومسلمات ليس وجودها يقينياً، ثم تسير بطريق الاستدلال فى استنباط النتائج المترتبة على الغرض الأساسى الذى سلمنا به، ولذلك يُسميها أفلاطون بالعلم الذى لا يستغنى عن استعمال الفروض، والضرورة فيها ضرورة فرضية، كما يقول أرسطو.

---

[1] راجع أورسيل: الفلسفة فى الشرق، ص ٥٥.

والمعارف والأفكار الفلكية التى أبدعها العقل المصرى القديم، وما نعرفه عن الكواكب التى تنتسب إلى سيارات تُرى من الأرض أنها مراكز لها، كل هذا، قد أخذه اليونان - إما قضية مسلمة وإما موضعاً للنظر والبحث - عن قدماء المصريين، وإلى أولئك أيضاً يمكن أنْ تنسب نظرية العناصر الأربعة فى الطبيعة، مع فكرة أنّ الماء هو العامل الأساسى.

ومجموع هذه النتائج والافتراضات الفلكية المصرية القديمة، هى التى ذهب للبحث عنها على ضفاف النيل طاليس أولاً ثم فيثاغورس بتوصيةٍ منه، وهو الذى قضى اثنين وعشرين عاماً فى المعابد المصرية.

ولاشك أنّ الإغريق عندما زاروا البلاد فى عهد الأسرة السادسة والعشرين، تأثر خيالهم بطبيعة الحالة بقدمها:

"أنتم معشر الإغريق أطفالٌ على الدوام، إذ لا يوجد رجلٌ هرم بينكم".

هذا ما قيل إنّ الكاهن المصرى أنبأ به صولون.

والاحترام للآثار التى طالت عليها الحقب يقويه تحفظ المترجمين الكهنة، وما يتسم به من وقار، جعل المسافرين الشماليين يتصورون المثل العليا، فى حدود ما وصلوا إليه من أعمال عقلية جليلة، لعلم شعب له مثل ذلك الماضى البعيد.

ولا يغيب عنا أن هذا الإتصال الذى فتح بابا للتفكير الإغريقى، قد تلاه عصر التعاون بينهم، وبين المصريين فى موطن العلم الذى لا نظير له فى العالم، وهو الإسكندرية، تلك المدينة التى نجحت فى جمع الشرق بالغرب.

(جـ) الفن:

فرض فن مصر القديمة طابع نفوذه على العالم الخارجى، كما يتضح من العلامات التى يمكن تبينها فى مصنوعات الخزف والنقوش البارزة فى الصناعة (المنوية والميسينية)، وكان هذا قبل أن يبزغ فجر الثقافة الهلينية.

لقد شيد المصريون معابد عظيمة، وقبورا، واستخدموا الأساطين وطرق العلم للسماح للضوء بالانسياب إلى الأرجاء الداخلية، بينما اقتصروا على أبسط الأبنية، واعتمدوا فى الزخرفة على النقش البارز وعلى اللون.

ولقد كان لفنهم المتأخر فى الحفر أثر على فن الإغريق فى مراحله الأولى، ولكن سرعان ما تجاوز تقاليده الصارمة، ولقد أعاد حكام مصر المقدونيون إحياء الفن القومى، ولكن ما استنسخه الإغريق كان يجافى الذوق والدقة.

واليوم بفضل علماء الآثار، فإن الحال غير تلك الحال، إن أعمال النحاتين العظيمة فى الأسرات الأولى قد تكشفت فى جمالها لتكون مصدرا جديدا للوحى، لفنانى العالم الحديث.

(د) الدين والفلسفة:

رغم أن الدين المصرى كان صعب الاستيعاب بالنسبة إلى كثير من الشعوب التى اعتبرته صيغا فنية أو لمحات خاصة بعلم الكون، إلا أن اليونانيين اعتبروه كتقاليد كلها حقائق، ويستدل على ذلك من اهتمام الفلسفة اليونانية القديمة بالمطابقات والمقارنات بين الآلهة الإغريقية اللاتينية وآلهة طيبة أو منفيس.

بيد أن الشئ الذى كان يؤثر فى الأجانب من الإدراك المصرى لم يكن تلك الآلهة المحلية التى على شكل حيوانات، ولا الآلهة السماوية والأرضية التى كان لسائر الأديان ما يعادلها، فلا أهمية كثيرا لأن تكون الأرض ذكرا والسماء أنثى فى زواج الأرض والسماء، كما كان الأمر عند الصين ، بعكس الحال عند الهنود والأوروبيين[1].

وكثير من الشعوب الأخرى قد عبدوا الشمس كالإيرانيين والسومريين من قبلهم، لكن الميزة الخاصة العظيمة التى امتازت بها العبادات المنفيسية أو الطيبية كانت ما تدعيه من قوة لمقاومة الموت، باتباع سلوك شخصى خاص، وبمعالجة الجسد معالجة خاصة حتى لا يبلى[2] .

هذا، والاستمرار فى تغذية الأموات لا يكفى لبقائهم أحياء، فخطر الموت مرة أخرى الذى طالما شغل الإدراك الهندى لم يستبعد استبعادا تاما؛ فهنالك أسباب أخرى عدا عدم التغذية، قد تؤدى إلى الموت الأبدى، لذا وضع قدماء المصريين فنا للتخليد يتناول المظهر المادى والمظهر النفسى، وهكذا وضعوا حلا لمشكلة الخلاص لا يشابه أى حل آخر.

---

(١) ، (٢) أورسيل: الفلسفة فى الشرق، ص٥٧.

إن التحنيط يحفظ قوة الحياة، ثم يشرع فى عمليات على المومياء نفسها أو على صورة تشبهها، فيتم منح (الجسد) القوى الحيوية كحركة الكلام والإشارة!، ويجب أن نعلم أن الفرد لا يعيش فقط بواسطة جهازه الجسمى، وقلبه الذى يعد حاسة داخلية وأداة للإدراك، بل هناك جزء هام من الفرد يبقى خارجا عنه وهو "الكاه"(وهى مبدأ القوى الفعالة للناس والآلهة)، فالشعيرة التى تجمع المومياء إلى "الكاه" تحول الجسد- أى "زت" - إلى شئ لا يفنى ويتيح للمتوفى أن يظهر، إما على شكل روح (باه)، وإما على شكل عقل (آخ)، ويظل العقل سماويا، أما الروح فتعود وتبعث الحياة فى التماثيل والمومياء متنقلة بين السماء والأرض[1] .

إن من الطبيعى أن يكون للإنسان جسد (زت) وكاه منفصلين، ولكن ليس من المعقول أن يكون له روح تستطيع التوفيق بين المبدأين، أو تحقق تلك الروحية؛ تلك الطريقة، طريقة الوجود الإلهى الخالد التى تشير إليها الصورة الهيروغليفية المرسومة على الجدران، والتى تدل على الخلود، فالسحر يستطيع أن يؤدى إلى حركة فوق الطبيعة، وهى حركة طالما التمستها من الرحمة الإلهية بعض العبادات الأقل مادية، وذلك بإحلال الخلود محل عدم الفناء المستمر، وهذا حل أول للرحلة إلى الشاطئ الآخر، الشاطئ الغربى حيث لايرجع من ذهب إليه، ثم شعرت البوذية برغبة فى الأخذ به، كما سنتناول ذلك تفصيلا عن حديثنا عن الفلسفة البوذية.

ولا يسعنا إلا أن نرى فى ازدواج (زت وكاه) صورة أولية لنظرية العالمين الحسى والمعنوى التى وصفها أفلاطون ودافع عنها بقوة[2] ، وهى المسماة ب"نظرية المثل". وتجدر الإشارة إلى أن افلاطون يعنى بالمثال (eidos) الحقيقة الثابتة وراء الظواهر المحسوسة الدائمة التغير، والمعرفة بالجزئيات - عنده - لا تكون صحيحة إلا إذا توافرت للإنسان المعرفة بالفكرة العامة المفسرة للأمثلة الجزئية المحسوسة.

ويرى أفلاطون أن الفكرة العامة أو الماهية المعقولة سابقة على وجود الجزئيات المشتركة معها فى الاسم، ويشير إليها بقوله المثال فى ذاته (Auto to) ويستعمل كلمة الماهية أو الجوهر (ousia).

---

(1) 1903, p. 462.

(2) وكذلك "إيدوكس السينيدى" وهو من مؤلفى نظرية المثل، قد أقام ستة عشر شهرا بجوار هليوبوليس (٣٨٢ - ٣٦٤ ق.م.)؛ بيديز، مجلة المجمع الملكى عام ١٩٣٣، ج١٩، ص ١٩٥-٢١٨.

وقد عمم أفلاطون نظرية المثل على كل مجالات الوجود، فافترض أن هناك مثلا للعناصر الطبيعية الأربعة ولمركباتها وللنبات والأحياء جميعا، بل ذهب إلى القول بوجود مثل للمصنوعات، كذلك فإن لكل التصورات الأخلاقية والمعنوية مثل خالدة مطلقة، لاتتعدد ولا تتغير رغم تغير تطبيقاتها وأمثلتها المشاهدة فى الواقع. ويقوم المثال فى الفلسفة الأفلاطونية، بوظيفة العلة المفسرة للوجود الطبيعى، وبهذه العلية المثالية أدخل أفلاطون التفسير الميتافيزيقى الذى لا يكتفى بالبحث التجريبى فى العلل، بل يفترض أنها توجد فى مستوى يعلو على التجربة وعلى المعلومات، وقد ترتب على هذا أن صارت علاقة العلية عند أفلاطون هى علاقة مشاركة، participation[1].

ولكن من يتتبع تطور نظرية المثل عند أفلاطون وخاصة بعد محاورة (بارمنيدس)، أى فى الطور الأخير من فلسفة أفلاطون فإنه يتبين تسرب مؤثرين رئيسين:

أولا: قول أفلاطون بعلية النفس فى العالم الطبيعى واعتبارها - النفس- علة مباشرة فعالة بعد أن كان المثال يقوم بهذه الوظيفة.

ثانيا: التوحيد بين المثل والتصورات الرياضية، لدرجة أن المثل أصبحت أقرب إلى نماذج مجردة، ليس لها فعل مباشر فى العالم الطبيعى أى (براديجما Pradeigma).[2]

و لقد أفضت فكرة أفلاطون فى علية النفس وفاعليتها فى عالم المحسوسات، إلى إمكانية القول باشتراك المثل أو النماذج مع النفوس فى التأثير على عالم الطبيعة، بل أصبحت النفس بمثابة العلة الفاعلة والمباشرة فى تحريك الطبيعة، بل واسطة بين الموجودات الحسية والمثل العقلية.

ونلاحظ أن هناك اختلافا بين العنصر الأزلى والروح الخالدة، فيما يتعلق بمصر واليونان القديمة، وأن أمنية العقل هى أن يصل بقدر الإمكان إلى حياة دائمة، حياة لايمكن أن تتأتى بالتعاون بين الذات والوجود.

---

(1) راجع، الدكتوره أميرة حلمى مطر، "الفلسفة عند اليونان" دار النهضة العربية، ١٩٧٧م، ص ١٦٩، وما بعدها.

(2) 242-261.

وقد عملت مصر أيضا على تكوين فكرة الكلمة أو العقل (اللوجوس)، وشاركها فى ذلك شعوب أخرى؛ ولكن لم يصل شعب من هذه الشعوب، حتى فى الأوساط الإغريقية إلى ما وصلت إليه مصر، من تنظيم هذه الفكرة تنظيما دقيقا؛ فالصانع يخلق بالتعبير بلسانه عما يفكر فيه بقلبه.

وقبل أن تنشأ الفكرة القائلة بأن نظام الكون والناس لابد أن يحدد بقوانين، وجدت فكرة تقول بتكوين (النظام) من مجموعة من الكلمات؛ والفراعنة كان لكلامهم نظامه وانسجامه، فكان هذا تمهيدا لتأسيس نظام العدل الأخلاقى.

ولنضف إلى ذلك أن الصيغ والأشكال التالية للنظرية، قد اصطبغت بصبغة العقلية المصرية، (فاللوجوس) الذى سطع لإحياء الكائن وإنارة العقول، يشهد بهذه القضية المسلمة التى استلزمها النظام الملكى الفرعونى: تطابق القوة المطلقة لسلطة الكلمة وقوة الشمس.

وهكذا، ابتداء من العصر السابق لسقراط إلى العصر الأفلاطونى الجديد، تركزت الفكرة اليونانية فى دائرة طرق التمثيل المصرية، التى ارتفعت إلى ذروة التفكير بطريقتين:

أولا، بإخلاصها المتفانى للحكمة العملية التى اعتبرها اليونانيون فلسفة وأطلقوا عليها هذا الأسم،

وثانيا ، بفلسفتها الدينية، وعندما انهارت مؤقتا جميع العقائد فى خلال المملكة الوسطى، بدت مقابل روح الشك واليأس بعض الثقة المعقولة فى قيمة الإدراك الفردى، وذلك لايجاد التوازن الضرورى فى الحياة اليومية، ففكرة "اعرف نفسك" السقراطية كانت لها سوابق، فضلا عن فكرة محاسبة الضمير الرواقية، لقد تقدمت تلك الحكمة على شكل قصص رمزية على الطريقة الشرقية، ومع ذلك فقد أثرت فى أحوال الحياة الإنسانية بأفكارها الواضحة، وفى بعض الأحيان، استطاعت تقوية المحافظة على الدين.

ونلقى الآن بعض الضوء على جانبين هامين من جوانب إبداع العقل المصرى القديم، ونعنى بهما، الفلسفة الطبيعية، والفلسفة الأخلاقية.

(١) الفلسفة الطبيعية:

نظر المفكر المصرى إلى الكون على أساس (المواليد)، فقصة الخليقة المصرية[١] تتلخص فى أن "آتوم" بدأ من المياه الأولى، ودون تدخل من أحد، بخلق الكون من (الهيولى - السديم-)، واتخذ هذا نظاما كونيا تضمن ثنائية الموجودات المتناظرة، حيث كان:

- اللامتعين: أساسا للبحر (السديمى) عديم الشكل وهو المادة الأولى
- واللامتحدد: أساسا للامحدود واللامتناهى.
- واللامشخص: أساسا للظلام والعتمة واللانظام
- واللامكتشف: أساسا للخفى والمحجوب.

وبذلك أرجع المصرى، الموجودات فى الكون إلى (أربعة أزواج) هى العناصر الأولى للموجودات، تفرعت عنها أصول ثمانية فى الأزمنة السحيقة[٢]، ولكنها كانت بلا نظام، مما فرض على المفكر المصرى أن يقابلها بعناصر النظام التى تحكمها الشمس، والتى بفضلها انتقل الكون من (الفوضى) إلى (النظام) بسبب عناصر القوة التى عبرت عنها مع الشمس عناصر الهواء والرطوبة وكائنات (الأرض) و(السماء).

وبذلك يصبح (الخلق) فى الفكر المصرى هو الحد الفاصل بين (الفوضى) و(النظام) وهو ما نسميه بهندسة الكون التى نادى بها أفلاطون فيما بعد.

أما عملية خلق السماء والأرض، فتتلخص، فى أن "آتوم" - الفراغ المشحون - انفصل إلى (هواء) و(رطوبة)، ثم تكثف الهواء، فكانت السماء، ومثل ذلك حدث للرطوبة (الماء) فكانت الأرض، ومن السماء والأرض، جاءت الكائنات التى عمرت بها الدنيا[٣]. ولمعرفة حقيقة هيمنة المبادئ (الفلكية) فى الكون المصرى، على

---

[١] دكتور محمد جابر الحسينى، فى العقائد والأديان، القاهرة ١٩٧١م، ص ٤٦ وما بعدها.

[٢] 1988, ch. 4.

[٣] كريمر: أساطير العالم القديم، ص١٩، ٤٦

حركة الأشياء فى الأرض، وتحديد خصائصها وسماتها، نجد إشارة صريحة فى (كتاب الموتى)[1] تفيد بأن الإله (الشمس) خلق العالم بما يملكه من عناصر النظام.

فالاسم، هو قوة الشئ؛ والتلفظ باسم جديد-من قبل الإله-هو بمثابة خلق جديد[2] ،ويتجلى هذا الاتجاه (الاسمى) بصورة واضحة فى أجمل نص وصلنا من مصر، ونعنى به " نص منفس" أو اللاهوت المنفس[3] ، الذى تضمن إشارة صريحة لمبادئ الخلق المستمر هذا، وهى (القلب) الذى يبتدع الفكر، و(اللسان) الناطق بالأمر، شخص لنا هذه العملية من خلال (حو= النطق بالأمر) و(سيا=الادراك).

بمعنى، أن النطق الذى يخلق الحالة المراد ايجادها، يعتمد مسبقا على معرفة بالشئ، أو فكرته، كمقدمة لعمليه الخلق، وهذه العملية لاتتم إلا بادراك شئ ما فى سياق مترابط ومتكامل مصدره الإله، وما ينتج عن ذلك من نطق الأمر الخالق: لشئ جديد.

ويتجلى لنا فى هذا النص، أن الإله (الشمس) هو جوهر الوجود، وسر الحياة، وإله (المعرفة والحقيقة)[4] وتلك مسألة توصل المفكر المصرى، إلى حلها،من خلال التأمل العميق والاستقرار المتراكم، لمتغيرات الحياة وتقلباتها، بما ينسجم والبيئة المصرية.

إن من يطلع عى نص (منفس) يقتنع بمضامينه الفلسفية، عن الكون والحياة، ذلك أنه يمثل تطورا فى نمط التفكير الفلسفى فى مصر القديمة، لأنه ينتمى إلى مرحلة تسبق سنة ٧٠٠ ق.م.، ولعله أعمق ما أبدعه الفكر المصرى من مفاهيم ومصطلحات فلسفية، يصف فيها الخليقة التى كانت فكرة انبعثت من قلب الإله ثم كانت أمرا حول الفكرة إلى حقيقة بفضل قوة الكلمة الخلاقة، والفكر والنطق، من الخواص المتميزة للسلطة فى مصر، واقتران (الفكر) بـ (النطق) ينبئ عن تصور منطقى تحدث عنه الإغريق فيما بعد على لسان (الرواقية)، أما الإدراك، فهو العلم

---

[1] راجع: موجز فى وصف الآثار المصرية، ص ٦٨-٦٩ وص ١٩٦.

[2] فرانكفورت، ما قبل الفلسفة، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا، بيروت ١٩٦٠م، ص٦٩

[3] أساطير مصر القديمة، ص ٢٢ و ٤٨ - ٥٢ و ص ٦١.

[4] راجع : ولسن (جون): الحضارة المصرية، ترجمة أحمد فخرى، القاهرة ١٩٥٥م ص٤٧٣.

المعبر عن الشئ، والذى كان أصلا فكرة مصدرها التلب، ثم جاء اللسان، ليعبر عنها بالفعل الواقع[1] .

وقد مثلت لنا هذه الفكرة، الشئ (بالقوة)[2] يتحول إلى وجود بالفعل، بالأمر (النطق)، وتلك إرهاصات فلسفية، ليست قريبة العهد من زمن الإغريق، بل يرجح عودتها إلى عصر يسبق عام ١٣٠٠ ق.م، حيث كانت وحدة الكون الحيوية واحدة؛ وهذا ما تحدث عنه أرسطو بعد ذلك بألف عام من خلال (القوة والفعل) أو (المادة والصورة).

وتجدر الإشارة إلى أن تصورات أرسطو للمادة والصورة أو القوة والفعل، تعتمد على وجهة نظره فى التغير أو الصيرورة، لأن أى تغير يفترض الثبات، وكل صيرورة تستلزم وجود شئ لا يصير.

وكل جوهر، أو موجود معين مركب من هذين المبدئين، مبدأ المادة، الذى يقدم أساسا يصدر عنه وجوده، كأن يكون البرونز مثلا مادة التمثال، ومبدأ الصورة، التى تحدد حقيقتة وماهيته، كأن تكون صورة التمثال هى (الإله هرمس) مثلا ولئن اتصفت الصورة بأنها الوجود، إلا أن المادة ليست اللاوجود أو العدم المطلق، وإنما هى وسط بين الوجود واللاوجود، أو هى باختصار استعداد وإمكانية (potentiality) للوجود، أو هى وجود بالقوة يتحول إلى وجود بالفعل بعد حصوله على صورة معينة، أى أن المادة هى مجموعة الشروط الواجب توافرها كى تظهر الصورة[3] .

وأى وجود لا ينشأ فى رأى أرسطو من العدم، بل من إمكان، أى من وجود بالقوة، وغاية الكائن أن يصل إلى تمام صورته، ونهاية التغير هى أن تحصل المادة على الصورة المناسبة لها، ومتى تم ذلك أصبح الوجود موجودا بالفعل بالنسبة للقوة كالإنسان اليقظ بالنسبة للنائم، أو كالبذرة بالنسبة للشجرة، أو كالبرونز بالنسبة للتمثال.

---

(١) "ما قبل الفلسفة" ، ص٧٢-٧٣

(٢) نفس المصدر، ص٧٧-٨١

(٣) Brehier, E. : Histoirede la philosophie, Toml. Paris P.U.F. 1948, p.199.

لذلك، فإن القوة لا معنى لها بذاتها، وإنما تفهم بالنظر إلى ما ستصير إليه، أو إلى الصورة، فالصورة (فعل- إنرجيا energia) لأنها تحقق ماهو بالقوة إلى موجود كامل، لذلك فهى أيضا كمال وغاية (إنتلخيا- entellchia) أى أنها تحدد الحالة النهائية الكاملة.

وهى أيضا، التى تهب الكائن حقيقته الثابتة أو ما هيته - (essence)،ومن هنا فقد انتهى أرسطو عند بحثه فى العلل إلى التوحيد بين العلة الصورية، والعلة الفاعلة، والعلة الغائية، فالصورة هى الغاية فى كل تغير، لأن التغير يهدف إلى تحقيق الصورة، وهى أيضا محركة وفاعلة، فصورة (الانسانية) فى الفرد - مثلا-علة محركة للتوالد، لأن الأب يهب الابن صورته التى هى الغاية النهائية لوجوده.

ويتداخل معنى المادة والصورة عند أرسطو، فقد تكون الصورة مادة بالنسبة لصورة أخرى، فصورة البرونز مثلا تصبح مادة وهيولى لصورة التمثال، أما الصورة التى لا يصح أبدا أن تكون هيولى لغيرها، والتى ينتهى عندها تسلسل الصور فهى الله أو المحرك الأول.

والمحرك الأول-عند أرسطو-لايتحرك، صورة خالصة وليس به مادة، لأن احتواءه على مادة يعنى افتقاره إلى صورة، وبالتالى وجود بالقوة يترع إلى الفعل، فلابد إذن أن يتصف هذا المحرك اللامتحرك بأنه صورة خالصة وفعل خالص لا يوجد به شئ من القوة، ويترتب على ذلك أيضا ألا ينقسم وألا يتعدد لأنه خال من المادة.

أما عن تأثير (الله) فى العالم- عند أرسطو- فليس أكثر من تأثير صورة يتعشقها محبوها، لأنه لايؤثر فيه إلا كعلة غائية لا تزيد على أن تكون مبدأ لوحدة العالم، كما يكون حلا لتفسير الحركة والتغير المستمرين فى العالم، فالغائية الملاحظة فى الطبيعة ليس مصدرها- عند أرسطو- تدبير العقل الإلهى، وتوجيهه الأشياء حسب خطة وغاية يتصورها[1].

(٢) الفلسفة الأخلاقية:

نستطيع أن نتناول أبعاد الفلسفة الأخلاقية عند المصرى القديم من خلال تساؤل فلسفى هام، طرحه على نفسه، هو: لماذا وجد الإنسان فى هذه الدنيا؟

---

[1] راجع فى هذا كله: الدكتوره أميره حلمى مطر: الفلسفة عند اليونان، ص٢٧٧ وما بعدها.

ولقد أدرك المصرى القديم، أن الآلهة خلقت الإنسان على صورتها، ولمصلحته[1] مركبا من (جسد)و(روح)، الأول- الجسد- مادى، والثانى ــ الروح ــ لامادى، ويفارقه الروح بالموت، ويعود إليه بعده، لوجود حياة ثانية، هى مستقر الإنسان لذلك أصبح الموت لدى المصرى بداية حياة جديدة[2] أبدية، وهى القاعدة التى استند إليها سقراط اليونانى فيما بعد، لكى يبرر تناوله للسم[3] .

فالإنسان الفاضل- فى رأى المصرى القديم- لايمحوه الموت، بل يحظى بالخلود، بسبب طيب ذكراه، واجتهد بعد ذلك فى بيان خصائص كل من (الجسد)و(الروح)،المادية والنوعية، وانتهى إلى أن لبعض الكائنات وظيفة أو فعالية، وهذه الفعالية إما أن تكون محسنة أو مسيئة[4] ، مما جسد الحل التناسخى فى عالم الأرواح المصرى، المرتكز على رؤيا أخلاقية، تحث الإنسان-تجنبا للعقاب- أن يكون من ذوى الأفعال الحسنة المطيعه، لكى لاتحبس روحه فى حيوان، فلا ترتقى إلى عالم السماء، إنها ذات الفكرة التى شرقت وغربت، فظهرت فى الهند، كما كان لها صدى فى اليونان.

لقد جاءت فكرة " الحياة الثانية" لدوافع أخلاقية، يقصد من ورائها تهذيب سلوك الإنسان، لأن الفعل السيئ لا يمر دون حساب[5]

هذا وقد احتوت فلسفة مصر الأخلاقية فضائل عديدة نذكر منها:

العدالة: والتى جاءت فى المجتمع المصرى، مساوية (للخير) وفق المنطق الدينى، تترجمه، مجموعة الوصايا الأخلاقية التى، تطلب من الإنسان، أن يتعامل مع

---

(١) " ماقبل الفلسفة " ، ص٧١

(٢) راجع : علام ، فنون الشرق الأوسط والعالم القديم، ص٦٩.

(٣) أفلاطون، المحاورات، (فيدون)، ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود، القاهرة، ١٩٤٥م (خلود الروح)، ص١٦٤، وماتلاها.

(٤) "ماقبل الفلسفة" ، ص ٧٦-٨٨.

(٥) كريمر: " أساطير العالم القديم" ترجمة أحمد عبد الحميد يوسف، القاهرة ١٩٧٤م، ص٤٠-٤٣.

الآخرين بما يجب أن يعاملوه به[1]

والقاضى العادل، هو الذى تقترن به صفات العدل والقانون[2] ويدرك، مقتضيات كل حالة وحيثياتها، ويمتلك القدرة على الأمر والنهى، وصولا إلى (العدالة) بشكلها الاجتماعى، بفضل ما تنطوى عليه العدالة من عناصر الرحمة.

وقيل عن العدالة، إنها "الزاد الذى تتقوت به الآلهة"[3] ، وفى هذا دلالة عن (روح العدل) التى يتخطى القاضى بفضلها، حرفية القانون، إلى حيث الحكم (بروح القانون) وصولا إلى أفضل الأحكام وأعدلها، وبذلك أصبحت محبة العدل تعبيرا عن إرادة (الآلهة) لصالح (الإنسان).

فضيلة الطاعة: احتلت فضيلة الطاعة فى مصر القديمة، موقعها، كواحدة من الفضائل التى تظهر نوايا الإنسان الحسنة، إزاء مجتمعه، فالإنسان السعيد، هو الإنسان المطيع، وفى ضوء ذلك الشعار، حقق الشعب المصرى فى تاريخه القديم أعظم المشاريع التى تتطلب صبرا وطاعة وجلدا وتحملا، وأصبحت (الطاعة) خصيصة من خصوصيات المجتمع المصرى.

هذا إضافة إلى وجود فضائل أخرى تنظم العلاقة بين الفرد ومجتمعه مثل فضيلة (العمل الجماعى) والرفق وحب الناس وفعل الخير والتمسك بالأخلاق الفاضلة، والمساواة بين المواطنين، التى هى فى المنظور العقيدى، فضائل تسر الآلهة، وتفتخر بالفرص المتساوية بين الناس، الذين خلقوا شركاء فى (الهواء والماء والعدل) دون أن يسى عودة ومسئولية الإنسان عن الشرور، دون الآلهة.

وقد تضمنت الوثائق المصرية من المبادئ والقيم الأخلاقية، ما يستحق الإشارة، منها:

الصمت: عنوان الحكيم، الذى يتجنب المصاعب، لذلك قالوا: بئر الحكمة" مغلقة لمن يكشف عن فمه، ومفتوحة لمن لاذ بالصمت".

---

(1) " ماقبل الفلسفة"، ص ١٠١-١٠٣

(2) " أساطير العالم القديم "، ص ٩٣

(3) "ما قبل الفلسفة"، ص ١٠٤-١٠٦،

التسليم: صفة محببة، فمع ثقة الإنسان بنفسه، وبقدراته العقليـــة، تبقـــى قـــدرة وجبروت الآلهة، فوق قدرات الإنسان العقلية والبدنية "فأقوال النـــاس - شـــئ - وأفعال الآلهة شئ آخر" مما رسم فى شخصية الإنسان، مسحة من العجز تفـــرض عليه التعلق بالإله والاعتماد عليه[1].

وقد آمن المصرى القديم، بأن (القدر) هو البعد الذى يشد الإنســـان إلى مصـــيره (مستقبله) المجهول، لا بمعنى الاستسلام، ولكن بمعنى أن لكل إنسان ساعته الـــتى لا يمكن الافلات منها مهما كبر ذلك الإنسان أو صغر[2].

القناعة الواعية: إن السلوك الحميد رهن بقناعة الإنسان، المتأتية من وعيه لصـــواب الفعل الذى يقوم به، دون أن تنفصل هذه المسألة عن طبيعة الإنســـان، لأن هـــذه الطبيعة، هى محرك السلوك ومقود الإنسان تنفيذا لنداء الإله:

"وإنما أجعلك تعرف ما هو الحق فى قلبك، أنت، لكى تفعل ما هـــو صـــواب فى نظرك"[3].

(هـــ) تعقيب:

لم يعد أمام الحشد الهائل من المكتشفات العلمية والفلسفية والأدبية فى مصر القديمة، أن يقول أحد: ماذا قدمت مصر القديمة إلى العلم والفلسفة والأخلاق؟ فها هـــى منجزاتهم، ترسى لنا ركائز النهضة اليونانية اللاحقة، واليونانيون - أكثر من غيرهم - يعرفون هذه الحقيقة، ويمتلكون القدرة على إيضاح قيمة (الحكمـــة المصريـــة) وحجمها، التى يسرت لفلسفاتهم وعلومهم، محيطا تاريخيا ومعينا معرفيـــا ممتـــازا، لاينضب، وضحته منجزاتهم الظاهرة، وطلاب العلم الذين كانوا يفدون إلى مصـــر للإفادة من فلسفة الشرق وفكره، فاستفادوا منها، بقدر مـــا تســـتقيم وتجربتـــهم الحضارية اليونانية[4] . يفسر ذلك وصول العديد من فلاسفة الإغريق إلى المراكـــز

---

[1] راجع "ما قبل الفلسفة"، ص ١١٠-١١٦.

[2] "فى رحاب المعبود توت"، ص ٩٨

[3] "ما قبل الفلسفة"، ص ١٣٧

[4] ماقبل الفلسفة، ص ١٤٠ - ١٤١، وفى رحاب المعبود توت ص ١٦٣.

العلمية المصرية التى استقروا فيها ردحا من الزمن، فكانوا بذلك حملة الفكر الشرقى وقنوات توصيله إلى اليونان[1].

والاعتقاد السائد عند اليونان بأن التأمل المصرى كان عميقا بنسبة قدمه، قد قابله من جانب المصريين ثقتهم فى تقاليدهم الخاصة الدائمة، إلى حد كانت تبدو لهم ذات قيمة خالدة، فالشكل العقلى الخاص بوادى النيل يمتاز بصبغته الأزلية، ولكن كيف التوفيق بين هذه القيمة العالية، والخاصة بالشئ البسيط والذى لا يتغير، وبين اختلاف الآراء؟ فالمصريون والإغريق المختلطون بعضهم ببعض فى الإسكندرية، والذين اتصلوا فضلا عن هذا بالعامل السامى، الذى أكد" فيلون" أهميته، قد وضعوا شكلا جديدا للحقيقة، قد يبدوا أقل وضوحا كما ينظر إليه اليونانيون، لكنه لا ينقص عمقا بحكم اتفاق الرمز.

ولكى يعطوا الصيغ القديمة جدة الزمن الحاضر، ولكى يوفقوا بين المعرفة والعقيدة، لم يسعهم إلا الالتجاء لفن التفسير والتأويل، الذى يجد فى الأساطير تبريرا للشعائر، وفى القصص الخيالية تصويرا للإدراكات، وفى مذهب الاختيار، المقدرة على فهم الشئ فهما موحدا دائما.

واستمرار وجود الأشكال الحيوانية باعتبارها رموزا للمقاطعات أو للآلهة التى نسلتها، ومعادلة النقوش ذات الأشكال الحيوانية والإنسانية، والاعتقاد بالمطابقات المختلفة التى تكشف عن أشياء سرية متماثلة، كل هذه الأمور كانت مواتية لاتخاذ الخاز وسيلة للفهم والإدراك، فالشمس، باعتبارها شكلا اعتيدت رؤيته، ورسما عن حورس، من شأنهما أن يستجلبا الحدس العقلى، أسوة بالجعران، وهو التميمة العادية، هى طريقة مشتبه فيها، ويتقهقر بمقتضاها منطق الإدراك أمام منطق التخيل والإرادة، وكلاهما من مميزات الروح الأولية، وإذا ما خضع لها المذهب العقلى الناشئ عن سقراط وأرسطو وإقليدس وأرشميدس، فقد كان يتوافق مع عقلية الزنوج التى يكشفها المختص بدراسة مصر القديمة خلف دقائق الحضارة التى تبهره.

---

(1) جورج سارتون: العلم القديم والمدنيه الحديثة، ترجمة دكتور عبد الحميد صبرة، القاهرة، ١٩٦٠م، ص ٥٩ ومابعدها.

إن هذا الحل الوسط بين المعرفة والتجربة الدينية قد يدل على خطوة إلى الوراء فى مضمار العقلية العلمية، لكنه قد ترتب عليه تقدم للإنسانية فى مجموعها؛ إذا قد أصبحت أقدر على معرفة أن عقائدها، مهما كان فيها من اختلاف وغرابة، تخفى وراءها معنى له قيمته وخطره.

هذا، ومن الأمور البديهية أن الروح المصرية كانت ذات صبغة إغريقية، وهذا ما يساعدنا على فهم مختلف مميزات ثقافتها؛ وهى المذهب الوجودى والوثنية الزنجية، والاعتقاد فى تعادل مختلف أشكال الوجود، دون حاجة إلى تدخل التناسخ، كما هو الأمر فى آسيا.

وكل ما نأمل هو أن تقوم مقارنة مستندة إلى وثائق وبعيدة عن التحيز، لتلقى ضوءا على التشابه والاختلاف بين حضارتى مصر واليونان، اللتين هما أصل الحضارات الأخرى، واللتين لم تنشأ بينهما علاقات مباشرة مستمرة إلا من الألف الثانى ق.م.، ولكن ليس هنالك من يشكك فى أثرهما فى تكوين باقى حضارات العالم.